تعليم الجغرافيا وتحديات اقتصاد المعرفة

تحليل نقدي

أ. د/ منصور أحمد عبد المنعم

أستاذ متفرغ – كلية التربية – جامعة الزقازيق

المقدمة:

لا شك أن تدريس الجغرافيا عكس التغيرات واسعة النطاق التي حدثت في الاقتصاد، والمجتمع، والبيئة، في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. والآن أصبح على مناهج الجغرافيا في التعليم العام الاستجابة التحديات العيش في القرن 21 والتي منها تداول فكرة الاقتصاد المعرفي العالمي وتدفق رأس المال، السلع، الأفكار والناس بسرعة متزايدة. والتحدي الآخر هو أن تلك القوى السابق الإشارة إليها أصبحت تهدد الإنسان بالإحساس بالمجتمع المحلي، ويطرح هذا مسألة دور الجغرافيا كمادة وكعلم في الوضع التعليمي الراهن.

في عام 2007 تم تقديم عروض في المدارس وللمعلمين في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وفي المملكة المتحدة تتحدث عن (حدوث التحول) في كل من السكان والاقتصاد، وهذا التحول يقوده التطور التكنولوجي. وهذا يعني أن أنظمة التعليم عليها أن تتكيف مع الأوضاع العالمية الجديدة. فالنمو السكاني الرهيب في كل من الصين والهند مع شبح قوة العمالة الكبيرة والرخيصة والمتعلمة يمثل تهديدًا لدول مثل الولايات المتحدة الأمريكية وحليفاتها في أوروبا، بريطانيا وفرنسا وألمانيا.

وهذا الوضع العالمي أدى إلى فكرة أنه لا يوجد عمل أو وظيفة لشخص ما تستمر مدى الحياة A Job for Life، وأنه في المستقبل سيكون هناك حاجة للأشخاص الذين يتمتعون بالمرونة والاستعداد للعيش في ظل المجهول. وأن الذي يحرك هذه التطورات هو النمو.

ظهور الاقتصاد الرقمي Digital Economy * ظهر مصطلح الاقتصاد الرقمي عام 2006 وهو انعكاس لانتشار استخدام تكنولوجيا المعلومات في جميع جوانب الاقتصاد بما في ذلك العمليات الداخلية للمنظمات والمؤسسات وفي المعاملات بين الأفراد والمنظمات. وساعد على ذلك رخص تكنولوجيا المعلومات وسرعتها وسهولتها في الاستخدام.

وأصبحت تلك التطبيقات الرقمية في كل مكان ومركز في النشاط الاقتصادي والاجتماعي، وكان لزيادة الاتصال آثاره العميقة على الجغرافيا الاقتصادية. كما سمحت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات للأسواق أن تمتد لتصل إلى الصعيد العالمي كما وصفها الجغرافي بيتر ديكن Peter Dickem 1998 في كتابه التحول العالمي Global Shift.

أن العالم يزداد في الاتصال والتشابك ومعدل تدفق المعلومات، ولذلك لا نكون مغالين إذا قلنا أن الثورة الرقمية تعتبر أحدث حلقة في سلسلة موجات الابتكار. وهذه الثورة تصف الصعود والهبوط في النشاط الاقتصادي في دورات تتراوح مدتها ما بين 50 إلى 70 عامًا على مدى الثلاثة قرون الماضية، وساعد على ذلك ابتكار تكنولوجي جديد وهو الرقاقة الالكترونية الدقيقة والتكنولوجيا البيولوجية.

التعليم واقتصاد المعرفة Knowledge Economy * نحن جميعًا متشاركون في التحول إلى اقتصاد المعرفة، وقد صيغت عبارة اقتصاد المعرفة من قبل رجل الاقتصاد بيتر دراكر Peter Drucker عام 1969 والذي ميز بين العمال اليدويين الذين يعملون بأيديهم وينتجوا الأشياء وبين العاملين في مجال المعرفة الذين يعملون بعقولهم لإنتاج أو التعبير عن أفكار ومعارف ومعلومات. لقد أصبحت المعلومات والمعرفة تحل محل رأس المال والطاقة بوصفها الأصول الأولية المنتجة للثورة، كما حل رأس المال والطاقة محل الأرض والقوى العاملة. ومن ثم أصبحت التكنولوجيا والمعرفة من العوامل الرئيسية للإنتاج.

لم تعد أنظمة التعليم الآن مهيئة لمتطلبات اقتصاد المعرفة. وبالتالي هناك إعادة تعليم للمجتمع من أجل مواجهة التغيرات الاقتصادية والثقافية. لقد أصبح من الصعب تعظيم مساهمة التعليم في ظل ظروف مضطربة عالميًا، وعلى الرغم من ذلك لا زال التعليم له أهميته في جميع أنحاء العالم بسبب تطوير اقتصاد المعرفة العالمي. وبلدان مثل المملكة المتحدة أصبحت تعتمد على إنتاج وتجارة المعرفة لتأمين الرخاء الاقتصادي وذلك بسبب تراجع الصناعة التقليدية. وفي ضوء هذه الظروف الدولية المتغيرة وجب على نظام التعليم أن يعدل من نفسه لضمان تمكن الأطفال من تحقيق الازدهار الفردي والوطني وتتبدى النظرة الناقدة لدور السياسات التعليمية والاهتمام بالمعايير التربوية وعلم أصول التدريس والتدريس والتركيز على اختيار المحتوى، وأن يتم التركيز بالتساوي على كل من النجاح الأكاديمي والتنمية الشخصية والاجتماعية لمواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين.

نحن نتحول الآن من مجتمع التركيز فيه على الهويات القومية والاجتماعية الثابتة إلى مجتمع مرحلة ما بعد القومية وما بعد الاجتماعية، مجتمع عالمي يعاد تشكيل الهويات فيه باستمرار ومن ثم على

المدارس في دول العالم أن تستجيب لتلك الحقائق الفعلية القائمة، وألا ينظر إلى ما يحدث من تغييرات على أنها سيناريوهات خيالية لسياسة تطمح وتخطط لإعادة البناء الاقتصادي والتعليمي.

لقد قامت الحكومات في كثير من دول العالم المتقدم والنامي نوعًا من التسوية السياسية غير المعلن بين الدولة وبين أصحاب العمل والعمال، حيث قدمت الحكومات التزامًا بالتنمية الاقتصادية والتشغيل للعمالة في مقابل تقييد الأجور والرضوخ السياسي هذا الوضع خلق مشاكل كبيرة لتلك الدول والجواب على هذا أشكال جديدة من الذكاء الجمعي Intelligence collective المعتمد على المعلومات والقائم على المعرفة والذي يعترف بوجود الذكاء المتعدد والبحث عن إجابة واحد صحيحة لحل لغز أو مشكلة ما.

يقتضي الذكاء الجمعي تغيير في الطريقة التي نفكر بها حول العلاقة بين الفرد والمجتمع وبالتالي تغيير في طريقة تنظيم مدارسنا ومؤسساتنا. فإذا كان القرن العشرين قد هيمنت عليه روح المنافسة فيجب أن يبدأ القرن الحادي والعشرين بمحاولة لخلق روح التعاون، على الرغم إن ما نراه أن روح التعاون توجد بين القوى العظمى في مقابل القوى الأخرى وعليه نستطيع أن نقول أن روح المنافسة لا زالت موجودة بين القوى العالمية، ويظل الجدل قائم.

تغير جداول أعمال السياسات الحالية:

لقد أصبحت هذه الأفكار السابق طرحها عن التحول العالمي والثورة الرقمية والاقتصاد المعرفي مؤثره جدًا في النقاشات حول السياسات التعليمية في كثير من دول العالم . ومن ثم تأثير هذه الأفكار والمناقشات على طبيعة المناهج الدراسية والتعليم والتعلم. فلا زالت المدارس بعيدة كل البعد عن الواقع والعالم الذي ينمو ويحيا فيه الأطفال. لا زال التدريس يركز على المسارات المعرفية بينما يركز قليلاً جدًا على المهارات الشخصية مثل العمل الجماعي والاحترام المتبادل والتفاعل الاجتماعي. فالمدارس ليست

بأهم الأماكن لتعلم الأطفال لأنهم يقضون 85% من ساعات استيقاظهم خارج المدرسة فهم يتعلمون بشكل كبير من ألعاب الكمبيوتر والتليفزيون وينظمون حياتهم من خلال هواتفهم المحمولة والشبكات الاجتماعية والإنترنت والفيس بوك وغيره.

ولا زال نشاط التدريس في المدارس والفصول وداخل عقول المعلمين وخبراء التربية في دول العالم النامي يقوم على افتراض بأن المعرفة هي أشياء يمكن تخزينها في العقول والكتب وقواعد البيانات. ووفق هذه الرؤية الأخيرة تظل المعرفة شيء ثابت يتراكم ببطء على مر الزمن.

وفحوى الفكرة المحورية في هذا النقاش هو وجود فجوه متنامية بين المناهج الحالية والخبرات وبين مطالب العالم الخارجي. فمحتوى المناهج الدراسية خارج التواريخ وبطيء في رد فعله ومجزأ وغير مناسب لاحتياجات الأطفال. ولذلك ينبغي على التعليم في القرن الحادي والعشرين أن يستجيب لتحديات اقتصاد المعرفة، وأن ينظم حول مبادئ الاستحقاق، والاختيار، والمنافسة، والمساءلة، والأداء، والتخصيص.

فعملية تحسين وتجديد المدارس ينبغي أن تكون جزء من قضايا تحسين وتجديد الحي وخاصة في المناطق الأكثر حرمانًا، فالمدارس تتأثر بالأحياء التي توجد فيها على الرغم أن لها دورًا مساويًا لغيرها في تعزيز التماسك الاجتماعي.

لقد أبرز التقرير لهيئة أوفستد Ofsted وهي الهيئة المسئولة عن قياس توفير شروط التعليم في إنجلترا في أكتوبر عام 2007، وجود أداء ضعيف للأطفال والشباب الذين يعيشون في المناطق الأكثر حرمانًا وظهر هذا الضعف في أهداف مرحلة التعليم الأساسي ونتائج الاختبارات ومن ثم وجب الكثير لفعله بسبب الخلفية الاجتماعية والاقتصادية وآثارها على فرص التعليم ومن ثم الحياة للأطفال والشباب.

لقد تغلغلت علاقات سوق العمل في النسيج الاجتماعي لحياة الناس وظهرت مشكلات سماها البعض مشكلات ما بعد المادية مثل اعتلال الصحة النفسية والشعور بالوحدة وتزايد إعداد الأطفال والشباب المتضررين نفسيًا من اضطرابات الأكل والسمنة وإدمان المخدرات بأنواعها وعدم مقاومة التسوق والإنفاق وتراكم الأشياء وانهيار العلاقات بما في ذلك علاقة الزواج سواء في الدول المتقدمة أو حتى في الدول النامية أو ما يطلق عليها أحيانًا دول العالم الثالث وإن كان المسمى الأخير بدأ يتغير وتظهر تصنيفات أخرى بعد حدوث ما يسمى بدول الربيع العربي ومحاولة القوى العظمى إعادة رسم خريطة العالم مع تركيزها على ولادة شرق أوسط جديد.

وبعض الكتاب كتب عن السعادة والتعليم وارتأى البعض أن الاثنين لا يسيران جنبًا إلى جنب، بينما يرى البعض الآخر أن السعادة والتعليم ذوي ارتباط وثيق حيث أن يكون هدف التعليم تحقيق السعادة الشخصية والاجتماعية. وعلى الرغم من ذلك يسأل البعض السؤال لماذا الكثير من الأشخاص المبدعين المتألقين كرهوا المدرسة؟

وأثبتت بعض الأدلة أن التركيز على الاختبارات بشكل كبير يمكن أن يدمر التعليم والابتكار والتجريب وأصالة التفكير. يتضح من العرض السابق أن اقتصاد المعرفة والمناقشات حوله يسير جنبًا إلى جنب مع السياسة التعليمية في الاهتمام بأمور وقضايا اجتماعية وهذه القضية غير واضحة ودور المدارس في حلها يبدو غير واضح كذلك.

التحليل الجغرافي والاقتصادي الرأسمالي:

يرى البعض أن السياسة التعليمية المعاصرة في بعض البلدان المتقدمة ترتبط بالتخيل الجغرافي الذي يرتبط بتخيل الاقتصاد الرأسمالي العالمي الذي أصبحت فيه السلع والخدمات والناس يروج لها بمعدل أسرع من أي وقت مضى لقد أصبح تدفق رأس المال من وإلى أماكن معينة يهدد في الواقع وقد

يؤدى إلى تقويض الإحساس بالمكان. ويمكن للجغرافيا أن تلعب دور في دعم الشعور لدى الناس بالذات وجعلهم ينتمون كمواطنين فاعلين، وأن تقدم وسيلة لتطوير المهارات والكفاءات اللازمة للاستمرار في الحياة أو العيش في الاقتصاد العالمي. هذا نظام جديد يكون فيه مجال أكبر من المعرفة الجغرافية وسيكون التركيز على تطوير الاتجاهات والقيم داخل نفوس الطلاب كي يلعبوا دورهم كمواطنين صالحين. وهذه النظرية الأخيرة تفسح مكانًا للجغرافيا في المدارس.

اعتبارات حديثة قدمتها الجغرافيا الاقتصادية:

لقد تغيرت طبيعة الاقتصاد العالمي بشكل مفاجئ وهائل، فقليلاً ما نجد الآن صناعات لديها الكثير من الحماية الطبيعية تحميها من المنافسة الدولية بينما في الماضي خلق البعد الجغرافي تأثير عزل قوي. لقد ساعدت الجغرافيا الاقتصادية في زيادة فهمنا لهذا التحول العالمي وإن عملية العولمة تحدث بمعدلات مختلفة وأن الطرق التي تؤثر بها يصعب التنبؤ بها فيتشابك كل ما هو عالمي وما هو محلي بطرق معقدة. ودفع هذا بعض الجغرافيين إلى الحديث عن عملية العولمة Globalization بأنها من الشؤون الجغرافية.

ويلخص البعض التحليل الناقد لاقتصاد المعرفة والجغرافيا الاقتصادية المعاصرة فيما يلي:

أولاً: أننا نعيش في عالم بدون خدود.

ثانيًا: العولمة هي قوى لا تقاوم تبلغ وتفوق الناس والأماكن.

ثالثًا: العولمة مؤشر على اندثار الدولة القومية.

رابعًا: أسطورة عدم حصانة العامل.

خامسًا: أسطورة اليد العاملة الرخيصة.

ويرى البعض أن الرأسمالية العالمية وجدت في جميع الأوقات وفي جميع الأماكن وأن الرأسمالية هي الطريقة المهيمنة على تنظيم الإنتاج. ورغم ذلك هناك الرابحين وهناك الخاسرين من العولمة فنحن نعيش في عالم فيه العلاقات الاجتماعية الرأسمالية هي المهيمنة لدرجة ينظر بها البعض إلى الرأسمالية أنها استعمار لجميع جوانب الحياة الاجتماعية. وعلى الرغم من هذه الأفكار السابقة لا زالت بدائل موجودة بالفعل في العالم للاتجاه السائد لليبرالية العالمية الجديدة.

قد يكون ما طرحناه سابقًا محبطًا إلى حدًا ما ولكن تحدث توني بلير Tony Blair رئيس وزراء بريطانيا السابق وصرح قائلاً:

"قد ورثنا بلد ويقصد (بريطانيا) به مئات من الأحياء قد شابت البطالة والفشل التعليمي والجريمة، وقد أصبحوا ينعزلوا تدريجيًا عن الازدهار.

والفرص التي يأخذوها معظمنا كمنح، فالمجتمعات تنهار والخدمات العامة تفشل في عملها وبدأ الناس أن يفقدوا الأمل".

كان أحد التطورات في المناقشات حول الجغرافيا والسياسة الاجتماعية منذ سبعينات القرن الماضي، أن المكانية والاجتماعية لا يرتبطان بشكل تلقائي وبالتالي اعتبرت السياسات القائمة على أساس المناطق أي البعد الجغرافي المكاني غير ملائمة في حل مشكلات الفقر والتفاوت الاجتماعي.

فمفهوم المكان لم يعد مغلق كما يعتقد البعض في ظل تزايد الاتصالات والتدفقات بين الأماكن المرتبطة بمناطق جغرافية متنوعة. ويبدو أنه توجد القليل من الأدلة على فهم السياقات الجغرافية والاجتماعية الأوسع نطاقًا التي تعمل بها المدارس.

أن أحد أهداف الدراسة الجغرافية أن يحس الأفراد بحياتهم ومكانهم في العالم وأن يجعلوا لحياتهم ومكانهم في العالم معنى. وهذه هي أنواع المعرفة التي يمكن أن تقدمها الجغرافيا وغيرها من المواد الدراسية في التعليم العام.

نحن لا نريد مداخل ملطفة أو مسكنات لمشاكلنا التي نواجهها ويواجهها أطفالنا من خلال تركيزنا على ما يمكن تسميته الذكاء العاطفي Emotional intelligence، في وقت ترى فيه النخب الفكرية أن الذكاء العاطفي يمكن أن يعتبر وسيلة لتحسين قدرة الفرد على الانخراط بنجاح في ما سمى الرأسمالية الجديدة New capitaliom في المدارس التي تواجه تحديات في التماسك الاجتماعي.

والسؤال الذي نود أن نسأله هو: كيف ينبغي أن تكون استجابة معلمي الجغرافيا في المدارس لتلك التحولات السابق طرحها في السطور السابقة وكيف يمكن الإعداد للحياة في اقتصاد المعرفة العالمي؟ وهل وجب الوقت لإعادة النظر في أهداف تدريس الجغرافيا في المدارس للقرن الواحد والعشرين ودور الجغرافيا في فهم عملية الإعداد للمجتمع وإعادة صياغة المجتمع والطبيعة.

ويبدو أن الجغرافيا أصبحت في موضع نقد عن دورها بعد ما رآها البعض من الكتاب والمفكرين الجغرافيين أنها فشلت في تثقيف الناس ومساعدة الناس على فهم ما يحكم حياتهم، وإنها لا تعدو أن تكون أحد العوامل والأدوات المساعدة على الحفاظ على الوضع الراهن وليس كوسيلة للتحول المحتمل.

نحن يمكننا تحقيق فهم أعمق لطبيعة الجغرافيا ووضعها في المنهج المدرسي باستخدام بعض الأفكار المعقدة الكبيرة المطورة في الجغرافيا مثل المساحة ونطاقها أو حجمها، والترابط والبيئة، والثقافة والتنوع، وتطوير سياسات المكان.

إننا نعتقد أنه من المفيد جدًا للشباب أن يحققوا هدف خلق الإحساس بالعالم أو فهو العالم من حولهم والذي ينقل إليهم ويتعرضون له يوميًا عبر وسائل الإعلام المختلفة.

الجغرافيا ومواجهة المستقبل:

السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الجزء من الموضوع:

- هل المدرسة الجغرافية هي مادة لهذا اليوم وللغد؟ هل هي عالقة بالماضي؟
- وهل دورها هذا يحد من إمكانية مساهمة الجغرافيا في التعليم؟

كتب جاردنر Gardner (2006) كتابًا بعنوان "خمسة عقول من أجل المستقبل" Five minds for the future أشار فيه أن الفكر التربوي لا زال محافظًا جدًا في الممارسات وهذا ليس شيئًا ننقده، ولكن الممارسات الحالية في التعليم في كثير من الدول ومنها مصر لم تعد تعمل أو تناسب تغير الأوضاع في مصر والعالم والحقيقة أننا علينا أن نسأل أنفسنا الأسئلة الآتية:

- هل المادة الجغرافية في مدارسنا ومناهجنا مبسطة ومحبوبة بالنسبة للشباب؟
- هل أداء الطلاب والشباب في الجغرافيا جيد؟
- هل هم في الامتحانات يعكسوا هذا الأداء والحب؟
- هل هم في دراستهم للمادة الجغرافية وتعاملهم معها على علم ووعي ومواطنين لديهم شعور بالمسئولية؟
- هل يوجد تقدير للجغرافيا من الآباء والمعلمين وليس فقط من قبل الطلاب؟

في حقيقة الأمر الجغرافيا مادة محيرة Elusive subject على عكس الفيزياء أو الرياضيات. فالجغرافيا لديها صعوبة في تقديم نفسها في مظهر وحده منضبطة ومتماسكة، ولكن بدلاً من ذلك تعتمد على استيراد أساليب ومداخل من العديد من التخصصات الأدنى، خلال فترة ق 20 وما بعد

الحرب العالمية الثانية أصبحت الجغرافيا أكثر احترامًا أكاديميًا وفكريًا بسبب ما قدمه القياس الكمي والنماذج والبحث عن القوانين والدقة التي يفترض أن المادة تحتاج إليها.

مثل هذا الموقف له نتائج مترتبة عليه فلكي تكون تربوي جغرافي يعني أن الجغرافيا تحتاج إلى أن تفهم في سياق التعليم. ونحن نفترض أن المعلمين يمتلكو فلسفة للتعليم لأنهم لديهم معتقدات ومعارف عن التعليم والتي تشكل فهمهم لأهداف الجغرافيا وأغراضها وعملياتها.

أنك كمعلم جغرافيا لابد أن تكون على علم وعقيدة بما يمكن للجغرافيا تجلبه إلى طاولة المفاوضات، لذلك على الشباب أن يعرفوا المعارف العلمية الأساسية في الجغرافيا وكيفية استخدام الأسلوب العلمي وكيفية تقييم المعرفة العلمية الجغرافية وأن يتكون لديهم تنور علمي أو ما نسميه محو الأمية العلمية الجغرافية. وهذا ما نؤكده عند مناقشة تطوير الجغرافيا في المناهج المدرسية.

نحن نأمل أن تجلب وأن تحقق هذه المناقشات السابق طرحها مثيرات للتفكير طموحه عن استخدام الجغرافيا بوصفها مصدرًا أو موردًا للمناهج.

توضيح ما معنى أن نفكر بطريقة جغرافية:

إلقاء الضوء على كيف أن المدرسة الجغرافية يمكن أن تساعدنا في التعامل مع خبرات الشباب الجغرافية، ومساعدتهم على تصور أنفسهم في العالم الآن وفي المستقبل وتشجيع الفضول والتحقيق في العالم، وكيف يروا أنفسهم على أنهم مشاركين في وضع المناهج الدراسية.

المراجع

Lambert, D. & Morgan j. teaching geography 11 – 18: A concept Approach New york, open university Press first edition 2010.